في بيت المقدس

للأستاذ علي الطنطاوي

كانت (ماريت) تدور في البيت ما تستطيع أن تستقر من جزعها على زوجها وإشفاقها أن يصيبه مكروه، تضم ولدها الرضيع إلى صدرها، تناجيه وتناغيه، ثم يدركها اليأس، ويخيل إليها أنه قد غدا يتيما لا أب له، فتساقط الدموع من عينيها على وجه الطفل فيفيق مذعوراً ويبكي، فتمتزج دمعة الحب بدمعة الطفولة ... وكان زوجها قد خرج من الغداة لردّ الأعداء المسلمين عن بيت المقدس، ومالت الشمس ولم يعد، ولم تعرف ماذا حلّ به ... وكانت (ماريت) فتاة باسلة، ثابتة الجنان، لم تكن تعرف الخوف ولا تخلع الحوادث فؤادها، ولكن وقعة (حطين) لم تدع لشجاع من الأفرنج قلباً، ولم تترك لفارس فيهم مأملا في نصر، فقد طحنت جيوشهم طحناً، وعركتها عرك الرحى، وزعزعت قلوب الكماة عن مواضعها. فكيف بقلوب النساء الحسان؟ وكان زوج (ماريت) فارس الحلبة، وبطل القوم، وكان قد رأى البنات من الإفرنج والألمان والانكليز وكل أمة في أوربة، يملأن جوانب القدس، فلم ير فيهن من هي أفتن فتنة، وأبهى جمالا، من (ماريت) فهام بها وهامت به، وتزوجها فكانا خير زوجين، وكانت حياتهما النعيم كله، ودارهما كأنها لهما جنة عدن ... ولكن حبّه لها لم يشغله عن حبه لوطنه، وتمسكه بصليبيته، وحرصه على أن يبقى أبداً فارس النصرانية المعلم وبطلها فكان كلما سمع نأمة طار إليها، وكلما دعا داعي القتال كان أول الملبّين ...

وفتح الباب، فخفق قلب ماريت وتلاحقت أنفاسها، ولم تدر أهو البشير أم هو الناعي، وتلفتت فإذا هي بزوجها يدخل عليها سالماً، يمد لها ذراعيه فتلقى بنفسها بينهما ... ويحدثها حديث النصر: لقد ردّ يسوع الأعداء، وقت في أعضادهم فانطلقوا هاربين، قبل أن نباشر حرباً، أو نشرع في قتال، لقد استقر أبتها الحبيبة ملك المسيح في بيت المقدس إلى الأبد، وياليتك أبصرتهم يا ماريت، وقد ذهب الفزع بألبابهم لما رأوا أسوار المدينة، تطل من فوقها أبطال النصرانية، وفرسان الصليب، فهدوا خيامهم، وولوا الأدبار لا يلوون على شيء لا يريدون إلا النجاة ... لما صدقت أن هؤلاء هم الذين فعلوا تلك الفعلة في (حطين). لقد فروا كالنعاج الشاردة ... فياليت أبطال القدس كانوا في (حطين)، ليروهم يومئذ ما القتال!

ألا تقدس الصليب، وتبارك اسم الناصري، إن أورشليم لنا إلى الأبد!!

***

ومشت معه إلى الكنيسة الكبرى، لتحضر الاحتفال بالنصر، وكان يحدثها في الطريق عن هؤلاء الوحوش الكافرين، ويصف لها فظاعة ديانتهم، وقسوة رجالهم، وكيف يأكلون لحوم أعدائهم، ويشربون دماءهم، ويصور لها ملكهم (صلاح الدين)، كما وصفه له الكهنة ورجال الكنيسة. فترتجف أضالعها خوفاً وفزعاً من هذه الصورة المرعبة، وتضم ولدها إليها وتتصلّب وتستجير بالقديسين جميعاً، وبيسوع وبالعذراء، أن لا يجعلوا له سبيلا إليها ... وأن لا يروها وجهه المخيف ...

وينقضي الاحتفال ويرجعون من الكنيسة، وهي تحس أن الدنيا قد ألقت إليهم مقاليد الأماني، وأن الدهر قد حكمهم فيه ونزل على حكمهم، وتستلقي على فراشها، وهي تداعب الآمال وتناجيها، حتى إذا بلغ بها التأميل أن ترى هذه البلاد كلها قد عادت للمسيح وأتباعه، ولم تبق في جنباتها منارة مسجد، ولم يعد يتردد في جوّها أذان، وترى زوجها قد علا في المناصب حتى صار القائد الفرد؛ أغمضت عينيها على هذه الصورة الحلوة، وأخذتها معها في أحلامها ... ونامت ... ولكنها لم تجد إلا حلماً مزعجاً: لقد أحست كأن المدينة تتقلقل وتميد، وكأن حصونها تدكّ دكا، وتخر حجارتها، وتتهدم كما يتهدم عش عصفور ضعيف بضربة من جناح نسر كاسر، وخالطت سمعها أصوات العويل والبكاء تتخللها صرخات الرجال؛ فعلمت أنه ليس بحلم ولكنها الحقيقة، فوثبت تحمل ابنها، ونظرت إلى سرير زوجها فلم تلقه

فى مكانه ... فخرجت تسأل ما الخبر ، فخبرت أن (صلاح الدين) ، قد دار حول البلد حتى حط على جبل الزيتون ، ثم صدم المدينة صدمة زلزلتها وهزتها هزاً ، وكادت تقتلعها من آساسها ، كما تقتلع الشجرة من الأرض الرخوة ، ورماها بالمنجنيقات والمرادات ، وقذفها بالنيران المشتعلة وهجم جنوده على الأسوار كالسيل المنحط ، بل كأبالسة الجحيم ، لا تحرقهم نيراننا ، ولا يقطع فيهم حديدنا ، كأن الردة والشياطين كلها تقاتل معهم ...

وكانت (ماريت) واثقة من قوة الدفاع ، فالقدس بلد النصرانية لبثت فى أيدى أهلها مائة سنة لا سنة ولا سنتين ، وفى القدس ستون ألفاً هم خيرة أجناد الصليب ، يقودهم (بليان) ويصرفهم البطريرك الأكبر ، ولكن هذه المفاجأة روّعتها ، وأدخلت الشك إلى قلبها ...

وطفقت الأخبار تصل إليها متعاقبة تترى ، وكل خبر شر عليها من الذى قبله ، وكلما مرت دقيقة سمعت نبأ جديداً عن شدة الهجوم ومضائه ، وعن تحطم أدوات الدفاع ، حتى جاءها الخبر بأن الرايات البيض قد رفعت على الأسوار وأنها قد عقدت الهدنة ، على أن يخرج من شاء من المدينة فى مدة أربعين يوماً ، ومن أراد البقاء بقى فى حكم صلاح الدين ، وأن تفتح له المدينة أبوابها ، وأن يدفع الرجل الذى يريد الخروج عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد دينارين .

***

وتركت (ماريت) القوم فى رجّتهم وخرجت تفتش عن زوجها الحبيب ، ومشت فى الظلام تدور حول الأسوار ، تنظر إلى الأبواب المفتحة ، والجنود الظافرين يدخلون بالمشاعل والطبول ، فتشد يدها على ولدها وتمضى متباعدة ، حتى تبلغ ساحة القتال ، فإذا هى تطأ على أعلام الصليبيين ممزقة محرقة ، مختلطة بجثث الأجناد مقطعة الأوصال ، فامتلأت نفسها رهبة وخوفاً ، وهمت بالعودة ولكنها غالبت النفس ومشت ، فقد كانت تفتش عن زوجها ، ولا تستطيع أن ترجع حتى تلقاه أو تعرف خبره ، وكان حولها رجال ونساء كثيرون يبحثون كما تبحث ، عن قريب أو صديق ، وتمثلت ذلك الأمل الضخم : أمل (الوطن القومى) الصليبى ، فألفته قد مات هو الآخر ، وألقيت جثته ... ورأت هذه الأرض قد عادت للقوم الكافرين يسوع وأمه ... وأحزنها ذلك كما أحزنها فقد زوجها ، وتضاعفت به مصيبتها وحاولت أن تتعرف وجوه القتلى ، من أحبابها وعشيرتها ، فأخفقت وعجزت ولم تبصر شيئاً من الظلام ومما أصابهم من التبديل والتغيير . وتمثلت لها حياتها كلها ، فإذا هى قد ذهبت وجاءت فى مكانها حياة جديدة ؛ حياة رعب وفزع وشقاء لا تعرف عنها شيئا ، ولا تدرى ولا يدرى أحد من قومها كيف يكون مصيره فى ظل الحكم الجديد ، وذكرت ما قاله لها زوجها عن فظاعة هؤلاء الفاتحين ، فأحست عند ذكر زوجها كأن قلبها قد انتزع من صدرها ، وطار فى أثره ، وفكرت فيه : أى أرض تقله ؟ وأى سماء تظله ؟ وهل هو قتيل قد تمزق جسمه الجميل ، وانتثرت ثناياه الرطاب ، و... ولم تستطع المضىّ فى هذه الصورة فأغمضت عينيها ، وألقت عليهما غشاء من الدمع ، وأحست كأن فؤادها يسيل حزناً عليه ، فانكبت على الولد تقبله بشدة ، وشغف ، كأنها تصب فى هذه القبل أحزانها وعواطفها ، حتى أوجعت الطفل فصرخ وبكى ... ورغبت فى الفرار من هذه المشاهد كلها ، ولم تقدر أن تتصور كيف يتبدل كل شىء بهذه السرعة ، وتتوهم حيناً أنها فى حلم ، وأنها ستتيقظ فترى كل شىء قد عاد كما كان ، ولكن الحقيقة سرعان ما تفجمها بهذا الوهم ، وتبدده أمام عينيها ...

وكان أشد ما روعها وحز فى فؤادها انصراف الناس عنها ، وكف أيديهم عن مساعدتها ؛ فقد شغلت المصيبة الداهمة كل واحد بنفسه ، فكأنه يوم المحشر كل يقول فيه : أنا ... وكرت راجعة وهى تعرض فى ذهنها فصول هذه الرواية التى مثلت الليلة ، فابتدأت بالظفر والمجد ، والحب والوصال . ثم انتهت بالخيبة المرة ، والهزيمة الماحقة ، والفراق الطويل ، ولم تفهم كيف يمكن أن يهوى فى لحظة الصرح الذى أقيم فى مائة سنة ، وكيف يهدم رجل واحد ما تعاون على إنشائه أهل أوربة جميعاً ، أيكون أمير مسلم واحد معادلا فى الميزان لملوك النصرانية كلهم وأمرائهم ؟ إذن كيف لو تحالف المسلمون كلهم ؟ كيف لو كانت هذه الحروب فى أيام الخلافة ، إذ كانت مملكتهم مملكة واحدة تمتد من الصين إلى قلب فرنسا ؟

وجعلت تسأل كل من تلقاه عن زوجها ، فلا يقف لها أحد ولا يرد عليها ، وإذا لقيت كريماً منهم رقيق القلب فسألته

فعطف عليها بجواب ، لم يكن جوابه غير (لا أدرى) !

وظهر القمر نحيلا هزيلا ، من بين فرج الغمام ، فألقى على الساحة ضياء شاحباً حزيناً ، جعل الدنيا كأنها وجه مريض محتضر ، فرأت قطع اللحم البشرى مخلوطة بالوحل ، تبرز من خلالها الدروع المذهبة ، وتبدو من بينها قطع الرماح المكسرة والسيوف ، فأشجاها التفكير فى هذه الجيف النتنة التى كانت فى الصباح أبطالا كراماً تخطر على أرض الوعد ، وكانت حصن الصليبية وسياجها ، وعادت إلى البحث عن زوجها ، والتحديق فى الوجوه ، فمر بها شيخ كان يحدب عليها ، ويحب زوجها ، فأدركته الشفقة عليها ، فأخذ بيدها فاستخرجها من الساحة ، وكأن الخطب قد حطم إرادتها وتركها كالتى تمشى فى نومها ، فانقادت إليه طيّعة وسارت معه ، وسألته هامسة كأنها تخاطب نفسها .

— يا أبتاه . هل رأيت زوجى ؟

فلم يحب أن ينبئها بما تكره فلوى الحديث وشغلها بغير ما تسأل عنه ، فقالت :

— وما تظن أنهم يصنعون بنا يا أبتاه ؟ هل يخطفون ولدى ليأكلوا لحمه أمام عينى ؟

— قال : ومن خبرك بهذه الأكاذيب ، إن المسلمين قوم كرام ، أهل وفاء ونبل ، وإن ملكهم صلاح الدين خير الملوك قاطبة ...

ومضى يحدثها عما عرفه من صفة المسلمين ، وهى فاتحة فمها دهشة لا تكاد تفهم ما يقول ولا تصدقه . فعاد يقول :

— ولو أنهم ذبحونا لما كانوا معتدين ، بل كانوا منتصفين منا ، فانا لما دخلنا القدس منذ مائة سنة قتلناهم فى البيوت والشوارع والمساجد ، وحيثما وجدناهم حتى صاروا يلقون بأنفسهم من فوق الأسوار لينجوا منا ، وحتى بلغ عدد من قتلنا منهم سبعين ألفاً ولم يتحرك قلب بشفقة ، ولا لسان بإنكار ...

وأصبح الصباح وهى لا تزال تفتش وتبحث ، والولد على يدها ينادى : بابا . فيذكرها به ، وما كانت ناسية ، وإن كلمة (بابا) لأجل كلة فى الدنيا ، وقائمة اللغات وأمها . فهى أول لفظ بشرى يجرى به لسان الوليد ، وهى كلة الإنسانية تختلف اللغات وتتحد فيها . وهى كلة الطهر ينطق بها الطفل قبل أن يعرف الشر ويدرى ما المكر ، وهى أحلى من كلة (حبيبى) لأن من الحب ما يمدح وما يذم ، أما الأبوة فخير كلها . والحب رابطة يصنعها الإنسان أما الأبوة فمن صنع يد الله

ولكن (ماريت) لم تكن ترى فيها هذا الصباح إلا ناراً تحرق كبدها ، وشفرة تمزقها ، وضاق بها أمرها ، فهرعت إلى جارات لها واجتمعن يترقبن ما يكون من الأهوال ، فإذا القدس ترتج بصرخة واحدة اجتمعت عليها حلوق المسلمين والنصارى ، أولئك ينادون : الله أكبر ، وهؤلاء يولولون ويبكون ، فنظرن فإذا أحد الجنود الفاتحين قد علا قبة الصخرة ، فأنزل الصليب الذهبى الذى لبث فوقها قرابة مائة سنة ، وحسبوه سيلبث إلى يوم القيامة ...

وجاءتهن الأخبار بما يصنع المسلمون فى المدينة ، فجعلوا يعجبون ، ولا يصدقون ، أن المسلمين لم يؤذوا أحداً ، ولم ينهبوا مالا ، وأن من شاء الخروج دفع ما اتفق عليه وحمل معه ما شاء وخرج ، وأن النصارى يبيعون ما فضل عنهم فى الأسواق فيشتريها منهم المسلمون بأثمانها ، وأنهم يروحون ويجيئون آمنين مطمئنين لم يروا إلا الخير والمروءة واللطف ، وأن المسلمين قوم أهل حضارة وتمدن ليسوا وحوشاً ولا آكلى لحوم البشر ، وروى لهن ما صنعوا فى الحرم ، فقد نزعوا منه كل ما أحدث النصارى ، وردّوه إلى حاله الأولى ، وجاؤوا بالمنبر الذى صنعه نور الدين الشهيد ليقام فيه ، فأقاموه فى الحرم ، وخطب عليه خطيبهم يوم الإسراء ...

قال الراوى : ودخلت فلم يمنعنى أحد ، ولم يسألنى من أنا ، فاختلطت بالمسلمين ، فإذا هم جميعا يجلسون على الأرض لا تتفاوت مقاعدهم ، ولا يمتاز أميرهم عن واحد منهم ، قد خشعت جوارحهم وسكنت حركاتهم ، وخضعوا لله ، فعجبت من هؤلاء الذين كانوا جنًّا فى المعارك ، وشياطين يوم القتال ، كيف استحالوا هناك رهباناً خشعاً ، ورأيت الخطيب قد صعد المنبر فخطب خطبة ، لو أنها ألقيت على رمال البيد لتحركت وانقلبت فرساناً ، ومضت حتى تفتح الأرض ، ولو سمعتها الصخور الصم لانبثقت فيها الحياة ، ومشت فيها الروح ، ووجدت هؤلاء الناس لا يغلبون

أبداً ما داموا مسلمين ، ولو اجتمعت عليهم دول الدنيا ، لأن قوة الإيمان أقوى فى نفوسهم من كل قوة ، إنه لا يخيفهم شيء لأن الناس إنما يخيفون بالموت ومنه يخافون ، وهؤلاء قوم يحبون الموت ويريدون أن يموتوا . كلا ، لا يطمع قومنا بهذه الديار أبدا ، أنا أقول لكم ، وأنا قد عرفت القوم وتكلمت بلسانهم وخالطتهم ووقفت على ديانتهم وسلائقهم . كلا ، إنه لا أمل لنا فيها ، لقد أزلوا الصليب اليوم ، بعد ما لبث مائة سنة فلن يعود ، لن يعلو هذه القبة إلا شعار محمد ، فلا نصرانية ، ولا يهودية ، خسأت وخابت اليهودية ، إن كل بقعة فى هذه الديار تنقلب إذا حزب الأمر وجد الجد (حطين) ، وكل وليد فيهم يصير (صلاح الدين) ، فلا يهرق قومنا دماءهم هدرا ، ولا يزهقوا أرواحهم فى غير طائل .

ونظرت (ماريت) فإذا قومها قد آثر فريق منهم البقاء فى ظل الراية الإسلامية ، حينما رأوا فى ظلالها العدل والأمن والهدى ، مع الحضارة والتمدن والغنى ، وأبى فريق إلا الرحيل ، فاختارت أن تكون مع هذا الفريق لا كرها بالمسلمين ، فقد بددت شمس الحقيقة ظلام الأوهام ؛ وكذب الواقع ما سمعت عنهم من الأحاديث ، ولكنها لم تستطع أن تقيم وحيدة فى البلد الذى يذكرها كل شيء فيه ، بزوجها ، وبحبها ، وبسعادتها التى فقدتها ...

ومشت القافلة وتلفتت ماريت إلى الوراء ، تودع هذه البلدة الحبيبة إلى قلبها المقدسة عندها ، بلدتها التى ولدت فيها ولم تعرف لها بلدا غيرها ، ونظرت إلى موضع الصليب الذهبى الذى كان يشرق كالشمس على قلبها فرأته خاليا منه . فأحست أنها تركت قلبها فى هذا البلد الذى كان لقومها ، فصار لعدوها ، والذى خلفت فيه زوجها لا تدرى فى بطن أى طير أو فى معدة أى وحش صار قبره ... وخلفت فيه ذكريات صباها وبقايا سعادتها وحبها ولكنها فرحت بالخروج منة ، حتى لا ترى ما يذكرها كل يوم بما فقدت ، ولتلحق بديار قومها ، وأهل ملتها ...

سارت وهى سابحة فى أفكارها فتخيلت زوجها وهو يمشى معها فى الموكب الظافر تحت راية الصليب ، فبكت واختلط نشيجها بنشيج النسوة من حولها وهن يبكين من خلفن من الأسرى والقتلى ، وإذا بالجنود يقفونهن ، فسكتن من الفزع ووقفن وأيقن بالهلاك ، فأرجعوهن فإذا على رابية طائفة من المسلمين بينهم شيخ على فرس له ، لم يرع (ماريت) وصحبها إلا قولهم : هذا هو السلطان .

هذا هو السلطان ، هذا (صلاح الدين) المخيف ، آكل لحم البشر وشارب الدماء . وجعلت تختلس النظر إليه فلا ترى ملامح الوحش الكاسر ، ولا تبصر الأنياب ولا المخالب ، لا ترى إلا المهيبة والنور والجلال ، فلما وقفن عليه ، قال : ما تردن ؟

قالت امرأة : رجالنا فى الأسر ، أزواجنا ...

وتصايحن وبكين ، فبكى السلطان رقة لهن ، وأمر بإطلاق أسراهن ، وأعطاهن الدواب والطعام والمال ...

* * *

لما رأت (ماريت) زوجها صحيحا معافى ، نسيت الشقاء والهزيمة ، وألقت بنفسها بين ذراعيه ، لم تخف أن يبصرها الناس ، فقد جعل كرم السلطان كل واحد يشتغل بسعادته ، ثم مشت الطريق بهؤلاء النازحين لم يمشوا هم فيها ، لأنهم ملؤوها فلم يعد يعرف أول لهم من آخر ، فكأن الطريق كالنهر المتلىء بالماء من منبعه إلى مصبه ، نهر من الأسى والفرح ، والهزيمة فى المعركة والظفر بلقاء الأحبة ، وكره الغالبين وشكرهم على إحسانهم ، وأحست (ماريت) فى قلبها بالاعتراف بفضل هذا الرجل المحسن ، ورأت خلال الإنسانية والحق والنبل تتمثل فيه هو ، لا فيمن رأت من رجال قومها . وكادت تحبه ثم تنبه فى نفسها دينها وما علموها من بغض الإسلام فتوقفت وحاولت أن تذكر سيئة واحدة لهذا الرجل ولقومه تستعيد بها بغضاءها إياهم فلم تجد ، وجعلت تقابل بينه وبين البطريك الأعظم ، الذى خرج مع القافلة بعدما استلب المعابد كنوزها ، وكنس الكنائس وحمل كل ما كان فيها ، ولم يعط من هذا المال أحدا ، لم يجد به على امرأة ضعيفة تمشى معه ، ولا على شيخ عاجز ، وذكرت ما سمعت من أن السلطان تركه يخرج بهذا المال ، مع أنه شرط لهم الخروج بأموالهم هم لا بأموال الكنائس ، وذكرت ما كان يصنع قومها من إخلاف الوعود ، والحنث بالعهود ، فتمنت لو أنها كانت مسلمة ، ولكنها لم تجهر بهذه الأمنية وخنقتها فى نفسها.

* * *

وتدفق هذا النهر البشرى يحمل أعجب أنواع السلائق

الإنسانية ، وأغرب التناقضات ، ففيه حنو الأمهات وإيثارهن ، وفيه أثرة الأغنياء وقسوتهم ، وفيه الصبر وفيه الجزع ، وفيه الصدق وفيه التزوير ، وفيه هذا البطريرك الذى يزعم أنه خليفة المسيح ليساعد الفقراء ، ويزهد فى الدنيا ، ثم يأكل مال الله وحده ويعرض عن الفقراء والمحتاجين .

مشت هذه القافلة فى الطرق القفرة ، والمسالك الموحشة ، لم تكن تحب أن تعرج على شىء من بلاد الاسلام ، كانت وجهتها طرابلس ، فلما بلغتها بعد الجهد البالغ ، والشقة المهلكة وبعد أن تركت فى الطريق ضحايا الجوع والتعب ، ماتوا وفى القافلة الأغنياء معهم الذهب ، وفيها البطريرك يحمل من أموال الله مائة ألف دينار ...

... لما بلغتها ، أغلق أميرها السور فى وجه القافلة وردها ، ثم بعث رجاله فاستلبوها ما كان معها[1] ، فانبرى لهم الشجعان والأبطال ليردوهم ، فأوقعوا بهم وقتلوهم ، وكان فيمن قتل زوج (ماريت) .

وتاه من بقى فى البرية كما يتيه الزورق فى لجة البحر ، وعاد أكثر أهلها إلى دنيا الأمن والمروءة والنبل دنيا المسلمين ؛ وكانت ماريت مع التائهين ، تمشى معهم قد مات حسّها وتبلّد شعورها ، ولم تعد تستطيع أن تفكر فى شىء ، تنزل بنزولهم وترحل برحيلهم ، وتأكل إن أطعموها ، وتصمت إن تركوها ، وكأنما قد خولطت فى عقلها ، أو أصابها مسّ من الجنون ؛ حتى بلغوا أسوار أنطاكية ، فطردهم أهلها وردّوهم[1] ...

... فرجعوا إلى بلاد الإسلام وقد أيقنوا أنه لن يكون فى الأرض أنبل ولا أفضل من هذا الشعب الذى علمه محمد كيف تكون الإنسانية ...

أما (ماريت) فبقيت مكانها ذاهلة كأنها لا تبصر ولا تعى ، فأقبل عليها شاب من أهل أنطاكية من قومها ، فأخذ بيدها وواساها ، فانقادت له ، وسارت معه ، حتى احتواها منزله على سيف البحر ، فسقطت من التعب والاعياء نائمة ...

وأيقظها لغط حولها ؛ فاستفاقت فسمعت صوت رجل يقول لصاحبه :

— ما ندعك تنفرد بها إنها أجمل امرأة وقعنا عليها .

فيقول الأول :

— ولكنها سيدى أنا ... أنا الذى اصطادها .

فتفهم أن الخلاف عليها ، على شرفها وعفافها ، ويعود إليها ذهنها ، فتذكر الماضى كله ، وتدرك أنها فقدت زوجها وحاميها ويشد الغضب من عزمها . فتقول لهما :

— ويحكم ، أهذه هى مروءتكم وإنسانيتكم ، أهذا هو دينكم يا جنود الصليب ...

فيضحكان ويقهقهان ، فيشتد بها الغضب ، وتصرخ بهما :

— بأى لسان أخاطبكم ؟ بلسان الدين وأنا أراكم ملحدين كافرين ؟ بلسان الإنسانية وما أنتم إلا وحوش فى جلد بنى آدم ؟ بلسان المروءة وقد فقدتموها ونسيتم حدودها ؟ ويلكم ألا تستحيون أن يكون هؤلاء المسلمون أشفق على نسائكم ، واحفظ لشرفكم منكم ، وأن يكونوا أنبل وأفضل وأحفظ لوصايا السيد المسيح ؟ لا والله لستم للمسيح ولا لمحمد أنتم للشيطان أولئك هم الذين جمعوا المسيح ومحمداً ، أولئك أهل الفضائل أرباب الأمجاد ، خلاصة الإنسانية ، إنكم لن تغلبوهم ، لن تأخذوا أرضكم القدسة من أيديهم أبداً ، كلا . إنهم أحق بها لأنهم أوفى منكم لمبادئ المسيح ، إنهم أعرق منكم فى الإنسانية إن المستقبل لهم ، إن لهم المجد والظفر ، ولكم أنتم اللعنة ، لكم الخيبة والخزى .

فلا تجد منهما إلا إيغالا فى الضحك ، وتتلفت حولها فلا تجد ناصراً وأين المعين على الحق ، الدافع عن الشرف فى بلد ليس فيه مسلم ؟ وتراهما قد أقبلا عليها بعيون محمرة ، فيجن جنونها ، فتلقى بولدها فى اليمّ وترمى بنفسها .

وكان البحر ساكناً فصعدت من الماء فقاعتان ، فيهما اللعنة الحمراء التى خرجت من فؤادها المحترق ، على هؤلاء الكلاب ... (الواغلين على فلسطين) !

وعاد البحر ساكناً كما كان ...

وأسدل الستار على القصة التى تتكرر دائماً منا ومنهم : قصة نبل لا يدانيه فى عظمته البحر ، ونذالة لا يغسل البحر أوضارها ولا يطهر الأرض من عارها .

(القاهرة) على الطنطاوى

(١) كل ذلك حقائق تاريخية رواها مؤرخو أوربة رجعت فيها إلى (حياة صلاح الدين) للدكتور الليل .